مفهوم النحو في العربية بين القديم والحديث

د. محمود حسن الجاسم
أستاذ مساعد

قسم اللغة العربية- كلية الآداب - جامعة حلب

حلب – سورية

مفهوم النحو في العربية بين القديم والحديث

د. محمود حسن الجاسم

ملخص البحث:

يعالج البحث مفهوم النحو في العربية بين القديم والحديث، فيقف بداية عند المعنى اللغوي للفظ ويبين الاستعمالات التي شاعت في البيئة العربية وذكرتها المعاجم، وهي القصد، والتحريف، والاعتماد، والمشابهة، والمقاربة، والجانب أو الجهة، والقسم أو البعض، ثم ينتقل إلى المعنى الاصطلاحي ليناقشه في ضوء المعنى اللغوي وموقف النحاة من ذلك، كما يناقش تعريفات النحاة للنحو وحدوده، مبينًا تأثر ذلك بتغير الوضع الحضاري سلبًا وإيجابًا، ثم ينتقل إلى دراسة المصطلح في العصر الحديث ويقف عند أبرز الجهود في الدراسات العربية المعاصرة، ويعرض لتأثرها بالدرس اللساني المعاصر، وكيفية اختلافها عما اتفق عليه في الدرس القديم، ثم يخلص البحث إلى تعريف محدد يرتئيه، على ضوء ما سبق ذكره.

الكلمات المفتاحية: النحو، المعنى اللغوي، المعنى الاصطلاحي.

مفهوم النحو في العربية بين القديم والحديث

كانت كلمة "نحو" تستعمل بمعان متعددة في حياة العرب الاجتماعية، ثم انتقلت إلى الميدان الاصطلاحي بعد أن نشأت علوم العربية وتطور الدرس، فأصبحت تطلق على دراسة الجانب التركيبي في اللغة، بيد أن الدلالة الاصطلاحية الدقيقة لم تكن موضع إجماع في الدرس القديم، وكذلك الأمر في الدراسات الحديثة بعدما تطور علم اللسانيات وتأثر الدارسون العرب به، وسنعرض فيما يلي لهذا المصطلح، فكان من مقتضيات الدرس أن نبدأ بالدلالات اللغوية، ثم ننتقل إلى مناقشة الدلالة الاصطلاحية قديمًا وحديثًا، لننتهي بعد ذلك إلى خلاصة معينة.

ترد كلمة "نحو" في العربية بمعان متعددة، منها القصد، والتحريف، والاعتماد، والمشابهة، والمقاربة، والجانب أو الجهة، والقسم أو البعض. وفيما يلي نعرض لهذه المعاني مفصّلة.

ذُكر عن ابن السكّيت(ت٢٤٤هـ) أنهم يقولون: نحا نحوه إذا قصده[١]. وأضاف ابن دُرَيد(ت٣٢١هـ) أن النحو هو القصد، ونحوتُ الشيءَ أنحوه نحوًا إذا قصدته، وكل شيء أممته فقد نحوته[٢].

ومما ورد بمعنى التحريف قولهم: نحا الشيءَ وينحوه ، إذا حرفه[٣]، ولعل معنى الانحراف والميل أخذ منه ، فقد ذكر ابن منظور(ت٧١١هـ) قول العرب: نحا الرجل وانتحى، إذا مال على أحد شقّيه، أو انحنى في قوسه[٤]. ويبدو أن الدلالة توسعت في الميدان الذهني لتدل على الصرف عن الأمر، فقد ذكر صاحب اللسان أنك تقول: نحوت بصري إليه إذا صرفته، ونحا إليه بصره ينحوه إذا صرفه[٥].

ومن ورودها دالة على الاعتماد ما ساقه الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، فقد روى أنهم يقولون: انتحى على شقه الأيسر، إذا اعتمد عليه[٦]. وبيّن ابن منظور المعنى المشترك بين "نحا" و"انتحى"، فأورد قولهم: انتحى فلان على الشيء إذا اعتمد عليه، وانتحى له وتنحّى له إذا اعتمد، وهما بمعنى نحا له، ومنه الانتحاء وهو الاعتماد[٧]. وهو بذلك يجعل الزيادة الصرفية في "انتحى" و"تنحّى" من قبيل المبالغة والتكثير في المعنى لـ"نحا".

أما معنى المشابهة فقد ورد عند الزمخشري، إذ ذكر أنك تقول: مررت برجل نحوك، والمراد: مثلك[٨]. ويبدو أن دلالة المقاربة جاءت من معنى المشابهة، فتقول: عنده نحوٌ من مئة رجل[٩]، والمقصود

---

[١] ابن منظور: لسان العرب "ن ح و".
[٢] ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: جمهرة اللغة "ن ح و".
[٣] لسان العرب "ن ح و".
[٤] المصدر نفسه.
[٥] المصدر نفسه.
[٦] الزمخشري، جار الله، محمود بن عمر: أساس البلاغة "ن ح و".
[٧] لسان العرب "ن ح و".
[٨] أساس البلاغة "ن ح و".
[٩] المصدر نفسه.

ما يقارب ألف رجل، كما أورد الكفوي (ت١٠٩٤هـ) أنهم يقولون: نحو ألف درهم، ويريدون ما يقارب ألف درهم[١٠].

وأما دلالتها على معنى الجانب أو الجهة فقد جاء في أساس البلاغة قولهم: هو على أنحاء شتّى لا يثبت على نحو واحد، وإنكم لتنظرون في نحوٍ كثيرة، وأتاه من ناحية الكرم فوجده كريمًا[١١].وربما تطورت دلالتها لتدل على معنى "القسم" أو "البعض"، لأن جانب الأمر هو قسم منه أو بعضه، فقد ذكر الفاكهي(ت٩٧٢هـ) أن من معاني كلمة "نحو" القسم أو البعض[١٢].

هذه هي المعاني اللغوية التي شاعت لكلمة "نحو"، أما المعنى الاصطلاحي فبداية ظهوره غير واضحة، ويبدو أنه من الصعب تحديد الزمن الدقيق الذي استعمل فيه مصطلح النحو، ولكن الروايات تشير إلى أنه استعمل في مرحلة متقدمة تعود إلى زمن أبي الأسود الدؤلي(ت٦٩هـ) في القرن الأول للهجرة وقبل عصر ابن أبي إسحاق الحضرمي(ت١١٧هـ)، وربما كانوا يعنون به فرعًا من فروع العربية يختص بالإعراب وبما صار يسمى فيما بعد بالصرف، والذي يؤيد هذا الترجيح ما نقله[١٣] ابن سلّام الجُمحي(ت٢٣٢هـ) عن أبيه عن يونس بن حبيب (ت١٨٢هـ): "وسمعت أبي يسأل يونس عن ابن أبي إسحاق وعلمه قال: هو والنحو سواء، أي: هو الغاية ... قال: وقلت ليونس: هل سمعت من ابن أبي إسحاق شيئًا؟ قال: قلت له: هل يقول أحد الصويق يعني السويق؟ قال: نعم عمرو بن تميم تقولها، وما تريد إلى هذا؟ عليك بباب من النحو يطّرد وينقاس"[١٤]. ومع تطور الزمن أخذ يشيع مصطلح "النحو" ليأخذ دلالة اصطلاحية معينة، بمفهومات متعددة متقاربة في معظمها كما سنرى بعد قليل.

أما سبب التسمية بالنحو فهناك غير رأي ذكره القدماء، ونبدأ برأي طريف يعزو أصل المفهوم إلى اليونان فقد جاء في اللسان نقلاً عن صاحب تهذيب اللغة ما يلي: "ثبت عن أهل يونان فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم أنهم يسمّون علمَ الألفاظ والعنايةَ بالبحث عنه نحوًا ويقولون كان فلان من النّحويين، ولذلك سُمّي يُوحنّا الإسكندرانيّ يَحيَى النّحويّ للذي كان حصل له من المعرفة بلغة اليونانيين"[١٥].

ومما ورد في المصادر أن المعنى الاصطلاحي أخذ من معنى التحريف، فقد ذكر ابن السّكّيت أن النحويّ سمّي نحويًّا لأنّه يحرّف الكلام إلى وجوه الإعراب[١٦].

ويرى القسم الأكبر من اللغويين أن المصطلح مأخوذ من معنى القصد، ومنهم ابن دريد، إذ ذهب إلى أن مصطلح "النحو" أخذ من معنى القصد، فكأنه قصد الصواب[١٧]. ثم أضاف ابن فارس(ت٣٩٥هـ)

---

١٠ الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى: الكليات ٣٧٥/٤.

١١ أساس البلاغة "ن ح و".

١٢ الفاكهي، عبد الله بن أحمد: شرح كتاب الحدود في النحو، ص٥١.

١٣ الطواني، محمد خير: المفصل في تاريخ النحو، ص١٣.

١٤ ابن سلّام الجمحي، محمد: طبقات فحول الشعراء ١ / ١٥.

١٥ لسان العرب (ن ح و).

١٦ لسان العرب "ن ح و".

١٧ جمهرة اللغة ١٩٧/٢.

أن المصطلح من المعنى المشار إليه، لأنه يقصد أصول الكلام، فيتكلّم الإنسان بفضل النحو على حسب ما كانت العرب تتكلم به[١٨]. ويعزو قسم من أصحاب هذا الرأي أخذ المصطلح من المعنى المشار إليه إلى واضع النحو الأول، وهو إمّا الإمام علي(ت٤٠هـ)، كرّم الله وجهه، وإمّا أبو الأسود الدؤلي، إذ ذكروا أن عليّ بن أبي طالب سلّم أبا الأسود الصحيفة النحويّة، ثم قال له: انحُ هذا النحو. فسمّي العلم بهذا الاسم نسبةً إلى الجملة التي قالها. أو أنّ أبا الأسود الدؤلي حين وضع ملحوظاته في العربية قال للناس: انحوا هذا النحو، وبذلك أُخذ المعنى الاصطلاحي نسبةً لما قاله واضع النحو الأول[١٩].

وذهب بعض الباحثين في العصر الحديث إلى أن المعنى الاصطلاحي ربما أُخذ من معنى "المثل"، لأن المؤدّبين استعملوا كلمة "نحو"، ليدلّوا بها على الطريقة العربية في عبارة ما، كأن يقول بعضهم لبعض: العرب تنحو في هذا كذا. وربما كان المؤدبون يستعملون كلمة "نحو" ليوضّحوا القاعدة بالأمثلة التي يضربونها، ويؤيد ذلك استعمال الكلمة بهذا المعنى في عصر مبكّر، فقد أورد أبو عبيدة(ت٢١٠هـ) عن عبد الله بن إسحاق الحضرمي أنه قال: "ويزيدون في أوساط "فعل" "افتعل" و "انفعل" و "استفعل" ونحو هذا"[٢٠]. ويظهر أن استعمال كلمة "نحو" بمعنى "مثل" كثر بعد ابن أبي إسحاق، كما نرى في كتاب سيبويه[٢١](ت١٨٠هـ)، ومن ثم انتقل المعنى اللغوي إلى معنى اصطلاحي[٢٢].

ويظهر أن أخذ المفهوم عن اليونان بعيد، ذلك أن كلمة "نحو" عربية بإجماع اللغويين[٢٣]، وارتباط الدلالة الاصطلاحية بالمعنى اللغوي واضح لا يخفى كما ذكرنا، ثم إن إطلاق اللفظ على القضايا النحوية ورد على ألسنة اللغويين مثل أبي الأسود وغيره قبل التأثر باليونان، أي في القرن الأول قبل الترجمة ونقل العلوم بزمن بعيد، وذلك من خلال الروايات التاريخية التي مرت بنا ونسبت وضع النحو إلى أبي الأسود أو الإمام علي وإطلاق اللفظ على القضايا النحوية، وفضلاً عن ذلك فقد جاء في مستدرك نهج البلاغة رواية تعزز هذا الرأي، إذ جاء عن الإمام علي ما نصه: "العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الأزمان"[٢٤]. وهذا يدل دلالة واضحة على أن الدلالة الاصطلاحية عرفت قبل الترجمة[٢٥].

---

١٨ ابن فارس، أبو الحسين أحمد: مقاييس اللغة، "ن ح و".

١٩ الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق: الإيضاح في علل النحو، ص٨٩، وابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، ص٥٩-٦٠، والشوكاني، السيد ركن الدين جمال الإسلام: كتاب القواعد والفوائد، ص٣٥-٣٦، وابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٥٣٧/٢.

٢٠ أبو عبيدة، معمر بن المثنى: مجاز القرآن ٣١٦/١.

٢١ انظر مثلاً: سيبويه: كتاب سيبويه١٢/١، ٢٦٦، ٣٤٥.

٢٢ المفصل في تاريخ النحو العربي، ص١٥-١٦.

٢٣ الدجني، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص١٧.

٢٤ قباوة، فخر الدين: التحليل النحوي أصوله وأدلته، ص٩-١٠ نقلاً عن: مستدرك نهج البلاغة، ص١٥٨.

٢٥ وقد ذهب الباحث فتحي الدجني إلى أن الاستعمال الاصطلاحي لكلمة "نحو" لم يرد قبل الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب، والغريب أنه تجاهل ما ذكرناه، انظر: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص٢٠-٢٢.

ويبدو للمتأمل أن أخذ الدلالة الاصطلاحية من معنى "التحريف" فيه شيء من الغرابة والبعد[٢٦]، لأن المناسبة بين الدلالتين تبدو بعيدة بحسب ما يتبادر إلى الذهن، فمعنى التحريف يرتبط للوهلة الأولى بنقل الكلام من مستواه الصحيح إلى آخر ملفّق، كما جاء في قوله تعالى: "يحرّفون الكلم عن مواضعه" [النساء/٤٦]. ولا يخفى أثر الدلالة القرآنية في نفوس المسلمين، فهل يقبل أن يكون مصطلح "نحو" مستمدا من معنى التحريف بعد هذه الإشارة القرآنية؟ كيف يستقيم هذا الفهم وغاية النحو هي محاكاة الكلام الصحيح الذي يخلو من الأخطاء من خلال معرفة قواعده التي تميز الصواب من الخطأ في استعمال اللغة؟ نقول إنه لا تستبعد العلاقة بين معنى التحريف والدلالة الاصطلاحية، ولكن لا يتضح ذلك إلا بعد تأمل وتدقيق في إيجاد المناسبة بين الدلالتين اللغوية والاصطلاحية، وتظهر المناسبة عندما نضع في حسباننا أن النحويّ يتصرّف في كلام العرب حين يفسّره بكلام ليس مألوفًا عند العربي ابن البيئة اللغوية التي نشأ فيها، أي يحرفه عن وجهته ودلالته المعهودة في البيئة الاجتماعية والتخاطب اليومي. إذ يبيّن الاحتمالات الممكنة لتركيب ما فيجيز استعمال التركيب بغير صورة نظرًا لإمكانية ذلك في العربية، وكأنه بعمله هذا يحرّف الكلام الأصلي أو يميل فيه على غير صورته التي وردت عن المتكلم إلى احتمالات أخرى غير منطوقة، لذلك لا يستبعد تأثر الدلالة الاصطلاحية بمعنى التحريف.

أما الرأي الثاني الذي يربط المصطلح بمعنى القصد ففيه من المناسبة ما يسوّغ تأثر المعنى الاصطلاحي لـ"النحو" به أو أخذه منه، لأنه يقصد بالنحو معرفة الصواب في صوغ الكلام، أو نسبة إلى الجملة التي قالها واضعه للذين ينبغي أن يتعلموا اللغة: انحوا هذا النحو، أي: اقصدوا هذا القصد، وذلك نظرًا لمكانته المميزة في تاريخ علم النحو.

ولا يستبعد تأثر الدلالة الاصطلاحية بالرأي الثالث، فربما أخذ المصطلح من معنى "المثل" أو تأثر به ، لكثرة استعمال كلمة "نحو" بهذا المعنى على ألسنة المعلّمين.

والذي ننتهي إليه أن الدلالة الاصطلاحية لكلمة "نحو" استمدت تكوينها من الدلالات اللغوية العربية السابقة جميعًا، فالنحوي بعمله يحرّف الكلام عن وجهته المعهودة في المجتمع وعن صورته المسموعة المألوفة، وذلك ببيان الاحتمالات التي يمكن أن تؤدى بها العبارة، وهو بذلك يبتغي بعمله معرفة الصحيح من الكلام، فهو يقصد إلى ذلك قصدًا، وللوصول إلى ما يريد يكثر من استعمال العبارات المشابهة في التعليم التي تتصدرها كلمة "نحو" بمعنى مثل، فإن المعلمين المؤدّبين يستعملونها بهذا المعنى حين يسوقون عبارات مشابهة في السياق التعليمي، ليوضّحوا القاعدة النحوية بالأمثلة التي يضربونها.

وإذا ما انتقلنا إلى تعريف مصطلح "النحو" وتحديده فإننا نجد أقوالًا كثيرة، يمكن تصنيفها ضمن قسمين، الأول شاع عند المتقدمين وكثيرٍ من المتأخرين، وأعطى اللفظ مفهومًا واسعًا، والثاني شاع عند بعض المتأخرين وضيق دائرة النحو، فجعله مقتصرًا على قضايا تركيبية جزئية.

---

[٢٦] جمال الدين، مصطفى: البحث النحوي عند الأصوليين، ص٢٤.

يواجهنا أصحاب الاتجاه الأول بتعريفات كثيرة منها ما ذهب إليه أبو بكر بن السرّاج(ت٣١٦هـ)، فـ"النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلّم إذا تعلمه كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة"[٢٧]. يبين ابن السرّاج أن الغاية من النحو تعليمية، وأن النحو قواعد جرّدها القدماء من استقراء الكلام، تُمكّن متعلّم اللغة من التحدّث بها، ولكنه لم يبيّن طبيعة تلك القواعد أهي نحوية فحسب، أم نحوية وصرفية وصوتية؟ ولم يبين علاقتها بقضايا اللغة الأخرى، فهل يريد بتعريفه قواعد النحو وغيره؟ أم دفعته الغاية التعليمية إلى عرض قواعد علوم العربية من نحوية وصرفية وصوتية معًا كما فعل أسلافه من علماء العربية؟ ومن خلال الاطلاع على كتابه "الأصول في النحو" نجد أنه لم يكتفِ بعرض القواعد التي تمسّ التركيب، وإنما عرض للصرف والأصوات أيضًا، ونظن أنه مدرك للفرق بين قضايا النحو وغيرها، ولكن ربما قادته النزعة التعليمية إلى إدراج كل من قضايا الصرف والأصوات مع أمور النحو.

ولا يضيف تلميذه أبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) جديدًا سوى لفظ "مقاييس"، حين يعرّف النحو بأنه "علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب"[٢٨]، فيوضح ما لاحظناه عند أستاذه في أمر تجريد القواعد، ولعله يقصد بكلمة "مقاييس" التقعيد في علم النحو ثم يسير على نهج أسلافه في عرض القضايا النحوية والصرفية والصوتية، شأنه شأن أستاذه.

ثم يأتي ابن جني (ت٣٩٢هـ) بتعريف أكثر وضوحًا وتفصيلاً مما سبق، فالنحو عنده "هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها رُدّ به إليها"[٢٩]. يظهر من هذا التعريف كما نلحظ أن النحو لا يقتصر على التركيب، وإنما يشمل قضايا صرفية أيضًا فهل يريد بالمصطلح علمي النحو والصرف معًا؟ أم يريد علم النحو فقط أي ما يتعلق بالنظام التركيبي؟ يبدو أن الاحتمال الثاني أقرب إلى مفهوم النحو عند ابن جني، على الرغم من أنه أدرج قضايا النحو والصرف معًا في تحديده لدلالة المصطلح، لأنه يفرق في موضع آخر بين كلٍّ من علمي النحو والصرف، مراعيًا أهمية الأخير في تعلّم اللغة[٣٠]، ولعل الذي دفعه إلى ذكر القضايا الصرفية في تعريفه إنما هو الاتصال الوثيق بين النحو والصرف، هذا الاتصال الذي يجعل كثيرًا من القضايا الصرفية جزءًا من النظام النحوي، ولا يستطيع الدارس أن ينظر إليها في التركيب إلا نظرة نحوية وصرفية في آن معًا[٣١].

---

[٢٧] ابن السرّاج، أبو بكر محمد بن سهل: الأصول في النحو ١/٣٥.

[٢٨] الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد: التكملة، ص٣.

[٢٩] ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص ١/٣٤.

[٣٠] ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: المنصف في كتاب شرح التصريف للمازني، ص٢- ٤.

[٣١] مثال التحليل النحوي لكلمة "حيّ"، فنقول في إعرابها: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة من آخره، وفي الوقت نفسه ننظر إليها صرفيًا وصوتيًا، فنقول: وزنه فعْ فعل ثلاثي محذوف اللام، أصله حيِي التقى متماثلان فأدغم الأول في الثاني، وهو إدغام صغير واجب، ومثل "الرجلان" في قولنا: جاء الرجلان. فهي بالمفهوم النحوي معربة فاعل مرفوع وعلامة الإعراب فرعية (الألف) وبالمفهوم

ويبدو أن مفهوم النحو عند أصحاب هذا الاتجاه يؤكد ما لاحظناه عند ابن جنّي، فهم يريدون بالمصطلح علم النظام التركيبي للغة، ومعروف أن هذا النظام يشمل بعض القضايا الصرفية والصوتية لا كلها، ولو أرادوا علم الصرف أو علم الأصوات لبينوا ذلك في تعريفاتهم. ويعتقد أنهم لم يوضحوا في تعريفهم للنحو لأسباب عديدة، منها النزعة التعليمية التي تقتضي إدراج هذه العلوم مجتمعة في تعليم العربية، مع الوعي الدقيق بأنها لا تشكل جزءًا من مفهوم النحو بالمعنى الاصطلاحي، ومنها ترابط هذه العلوم بعضها ببعض، حتى إن الإجراءات التحليلية تقود أحيانًا إلى التطرق إلى كل من قضايا النحو والصرف والأصوات معًا كما أشرنا فيما سبق، ومنها أيضًا عدم التحديد الدقيق والتوضيح لحدود المصطلح النحوي آنذاك. ويعزز هذا الاعتقاد ما ورد في بعض التعريفات التي تلت نحاة تلك المدة، فهذا أبو الحسن علي بن عيسى الرَّبَعي (ت٤٢٠هـ) يُروى عنه أنّ النحو "صناعة علمية يعرف بها أحوال كلام العرب من جهة ما يصح ويفسد في التأليف ليعرّف الصحيح من الفاسد"[٣١]. ويرى السكّاكي (ت٦٢٦هـ) أن النحو "أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقًا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنيّة عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية"[٣٢]. ففي كلا التعريفين تصريح واضح بأن حدود النحو تنحصر في الجانب التركيبي من خلال معرفة علاقة بعض الكلم ببعض وقوانين هذه العلاقة. وشبيه بذلك ما نلحظه عند ابن عصفور(ت٦٦٩هـ) حين يعرّف النحو بأنه "العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها"[٣٤]. ففي ذكره لكلمة "ائتلف" يحدد ميدان علم النحو بأنه معرفة قضايا النظام التركيبي، والأمر نفسه يطالعنا به شمس الدين السخاوي(ت٩٠٢هـ)، حين يعرّف النحو بأنه "علم يعرف به كيفية التركيب العربي صحةً وسقامًا وكيفية ما يتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها فيه"[٣٥]. فالنظام التركيبي عنده هو موضوع علم النحو وهو المراد بالمصطلح، ولا نريد أن نقوم بإحصاء للتعريفات التي تقصره على النظام التركيبي فهي كثيرة وتشكل النسبة العظمى لتحديد المصطلح وميدانه[٣٦]، وقلما تعرضنا لتعريف يدرج الصرف ضمن الدلالة الاصطلاحية[٣٧].

ومع مرور الأيام وتدهور الوضع الحضاري العام للأمة سيطرت النزعة التعليمية ذات الطابع المادي أو اللفظي على الدرس النحوي وأصبحت القضايا اللفظية من صميم الاهتمام النحوي عند فئة من

الصرفي اسم مثنى ولابد من ذكر الأمرين معًا في تحديد الوجه الإعرابي، إذ نقول: فاعل مرفوع وعلامة رفعه الألف لأنه مثنى، ففي قولنا: علامة رفعه الألف ذكر علامة إعراب، وهي نحو، وفي قولنا: لأنه مثنى ذكر قضية صرفية، ولا بد من الاثنين معًا في قضايا التحليل النحوي نظرًا لعلاقة بعضهما ببعض.

[٣١] السيوطي، جلال الدين: الاقتراح في علم أصول النحو، ص٢٣-٢٤.

[٣٢] السكّاكي، يوسف بن أبي بكر: مفتاح العلوم، ص٤١.

[٣٤] ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن: المقرّب ١/٤٥.

[٣٥] التهانوي، محمد علي الفاروقي: كشّاف اصطلاحات الفنون ١/٢٣.

[٣٦] انظر مثلاً: الاقتراح في علم أصول النحو، ص٢٣-٢٤، والصبان، محمد بن علي: حاشية الصبان على الأشموني ١/١٦، وللمزيد والتوسع انظر: البحث النحوي عند الأصوليين، ص٢٧-٢٨، ٣٠.

[٣٧] ممن جعلوا المصطلح يشمل الصرف الجرجاني صاحب كتاب التعريفات، انظر: الجرجاني، علي بن محمد: التعريفات، ص٣٠٨.

النحاة المتأخرين، فبرز اتجاه ضيّق مفهوم النحو، ولا يظهر ذلك عند من وقف عند المصطلح وجعل علم النحو قسيمًا لعلم الصرف، فهذا تفريق علمي جيد، وإنما يظهر عند الذين قصروا المصطلح على قضايا الشكل والإعراب فقط، أي: حصروه في القضايا اللفظية من الجانب التركيبي مهتمين بقضايا العامل والعلامة الإعرابية، من هؤلاء الفاكهي الذي عرّف النحو بأنه "علمٌ بأصول يعرف بها أحوال الكلم إعرابًا وبناء"[٣٨]. ولا يخفى البعد المادي اللفظي في التعريف وسطوة العامل النحوي، حين قصره على معرفة المعرب والمبني أو العلامة الإعرابية والبناء وجعله ذا طابع مادّي خارجي، فاكتفى بقضايا الشكل من عناصر النظم الواسعة في الجانب النحوي. وإلى ذلك ذهب ابن كمال باشا(ت٩٤٠هـ) حين حدّد النحو بأنه "معرفة أحوال أواخر الكلم من جهة الإعراب"[٣٩]. وبذلك قصره على جانب ضيق من جوانب اللفظ، شأنه شأن سابقه، ولا يختلف عنه الصبّان(ت١٢٠٦هـ)، حين حدّد المصطلح بقوله: "علم يبحث فيه أواخر الكلم إعرابًا وبناء"[٤٠]. وهناك آخرون من النحاة المتأخرين ذهبوا هذا المذهب في تضييق ميدان النحو[٤١].

ويبدو للمتأمل أن الأمور التي درسها النحاة تؤيد أصحاب الاتجاه الأول الذين جعلوا مفهوم النحو يشمل قضايا التركيب كاملة، ولم يقصروه على قضايا العلامة الإعرابية، لأن تجريد قواعد النظام التركيبي لا يقتصر على معرفة أواخر الكلم، كما ذهب بعض المتأخرين، وإنما هو معرفة عناصر هذا النظام كاملة ومعرفة ما يتعلق بها من قضايا أخرى تسهم معها في تشكيل كلام ذي معنًى، ومن خلال هذه المعرفة تستنبط القواعد التي تمكّن المتعلّم من أن يتحدّث اللغة، ويميّز الكلام الصحيح من الفاسد، لذلك نرى أن النحاة وهم يحللون الكلام لاستخراج قواعده قد راعوا كل ما يتّصل بالنظام التركيبي من أمور[٤٢].

ولعل الاهتمام بالنظام التركيبي دفعهم إلى أن يدرسوا النظام الصرفي لاتصاله الوثيق بالأول، فقدموا دراسة دقيقة لهذا العلم قل أن نجد نظيرًا لها في مختلف الدراسات اللغوية على مر العصور[٤٣]. كما قادهم الأمر نفسه إلى دراسة النظام الصوتي للكلام العربي، ولم يقتصروا على ما يتصل بالتركيب منه وإنما توسعوا كما في الصرف، بدافع ديني في المقام الأول هدفه الأداء الصحيح للقرآن الكريم، ومن ثم جردوا قواعد لعلمي الصرف والأصوات سواءٌ أكانت تتصل بالنظام التركيبي أم لا تتصل، ثم قادتهم النزعة التعليمية إلى أن يعرضوا لقضايا هذين العلمين جنبًا إلى جنب مع القواعد النحوية في مؤلفاتهم، مدركين بفضل تطور الدرس من خلال تحديدهم لمصطلح النحو وتقسيمهم للعناوين والموضوعات والأبواب في مؤلفاتهم أن كلاً من علمي الصرف والأصوات ليس نحوًا بالمفهوم الاصطلاحي الدقيق، وإنما يدرج في المؤلفات النحوية لغاية تعليمية.

---

[٣٨] شرح كتاب الحدود في النحو، ٥٢-٥٣.

[٣٩] ابن كمال باشا، شمس الدين أحمد بن سليمان: أسرار النحو، ص٧٥.

[٤٠] حاشية الصبّان على الأشموني١/١٦.

[٤١] انظر مثلاً: الاقتراح في علم أصول النحو، ص٢٣، وللمزيد: البدي، محمد سمير نجيب: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، ص٢١٨، والتونسي، زين العابدين: المعجم في النحو والصرف ١/٩٤، وجمعة، أحمد عبد العظيم: المصطلح النحوي، ص١٤١-١٤٢.

[٤٢] انظر: الجاسم، محمود حسن: تعدد الأوجه في التحليل النحوي، ص١٩-٢٢.

[٤٣] حسان، تمام: اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٥.

وتحسن الإشارة إلى أن القدامى أطلقوا على دراسة الجانب التركيبي منذ نشأته مصطلحات عدّة تزامنًا مع استعمال مصطلح "نحو"، أهمها "العربية"[٤٤]، يقول ابن سلّام الجمحي: "وكان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي"[٤٥]. ويتضح من السياق أنه يريد أول من أسس علم النحو. كما تحدث السيرافي(ت٣٦٨هـ) عن نشأة النحو مستعملاً مصطلح العربية فقال: "جاء أبو الأسود الدؤلي إلى زياد بن أبيه(ت٥٧هـ) يستأذنه أن يضع العربية"[٤٦]. ومن تلك الدلالة الاصطلاحية ما نقله الأصمعي(ت٢١٣هـ) بقوله: "حدثني شُعبة[ابن الحجّاج] (ت١٦٠هـ) قال: كنت أختلف إلى ابن أبي عقرب[٤٧]، فأسأله عن الفقه ويسأله أبو عمرو بن العلاء(ت١٥٤هـ) عن العربية، فنقوم وأنا لا أحفظ حرفًا مما سأله ولا يحفظ حرفًا مما سألته"[٤٨].

وإذا عدنا إلى أصل استعمال مصطلح "العربية" وجدنا أن الناس كانوا يطلقونه في الأصل على اللغة العربية الفصحى التي صيغ بها الشعر ونزل بها القرآن الكريم[٤٩]، فقد نقل عن عمر بن الخطاب(ت٢٣هـ) قوله: "تعلموا العربية، فإنها تُثَبِّتُ العقلَ وتزيد في المروءة"[٥٠]. يبدو من السياق الذي وردت فيه الرواية أن الخليفة يريد: تعلّموا استعمال اللغة العربية استعمالاً يخلو من اللحن. ومع تقدم الزمن بات لفظ "العربية" مصطلحًا يطلق على دراسة العربية، وما تحتويه من ظواهر صوتية وصرفية ونحوية وظواهر لهجية وألفاظ غريبة[٥١]. ثم "صار "علم العربية" مرادفًا للنحو بمعناه الشامل"[٥٢].

وهناك مصطلحات أخرى استعملت مرادفة للنحو، جمعها الباحث عوض القوزي فضلاً عن "العربية"، وهي "الكلام"، و"اللحن"، و"الإعراب"، و"المجاز"، وقد شاعت هذه المصطلحات عند النحاة الأوائل[٥٣] قبل أن تنحصر الدلالة الاصطلاحية في "النحو"، ثم تلاشت جميعًا ماعدا "الإعراب" الذي بقي مرادفًا لـ"النحو"، حتى بات "النحو يسمى إعرابًا والإعراب يسمّى نحوًا"[٥٤]، في كثير من الأحايين، ولكن مع مرور الأيام انحصر مصطلح الإعراب في جانب ضيق مما يشمله النحو، فبات يطلق في العصر الحديث على الجانب التطبيقي التعليمي فقط.

---

[٤٤] أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص١٣.

[٤٥] طبقات فحول الشعراء١/١٢

[٤٦] السيرافي، أبو سعيد، الحسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين، ص١٣.

[٤٧] هو معاوية أبو عمرو الديلمي، انظر: الزُبيدي الأندلسي، أبو بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، ص٣١، الحاشية(١).

[٤٨] طبقات النحويين واللغويين ص٣١، وتكرر النص بتغيير طفيف في ص٣٧.

[٤٩] المفصل في تاريخ النحو، ص١١-١٢.

[٥٠] طبقات النحويين واللغويين، ص١٣.

[٥١] السيد، عبد الرحمن: مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، جامعة البصرة بالعراق ودار المعارف بمصر، ط١، د.ت، ص٣٥٣-٣٥٤، والمفصل في تاريخ النحو، ص١٢.

٥٢ قباوة، فخر الدين: جذور التحليل النحوي في المدرسة القرآنية القديمة، ص٢٦.

[٥٣] القوزي، عوض حمد: المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص١٨-١٩، وجذور التحليل النحوي، ص٢١-٢٧.

[٥٤] بكوت، أحمد سليمان: ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، ص١٥، وللمزيد انظر: بكر، محمد صلاح الدين: في قرينة الإعراب في الدراسات النحوية، ص٧، ١٦.

من جهة أخرى نرى أن مصطلح "النحو" عند القدماء أخذ دلالتين، الأولى تلك التي سبقت الإشارة إليها، وهي العلم أو الدراسة التي تتناول النظام التركيبي للغة، والثانية أطلقوها على النظام التركيبي نفسه، لذلك ربما واجهنا المصطلح في كثير من المؤلفات والمراد منه العلم المستنبط من النظام التركيبي ودراسته، وربما واجهنا مرة أخرى في بعض المؤلفات بمعنى النظام التركيبي نفسه، فأصبح المصطلح يطلق على العلم وموضوعه في آن معًا.

ويمكن أن نستخلص في ضوء ما سبق أن النحو هو ما يتعلق بالجانب التركيبي فإذا أطلق على النظام التركيبي للكلام يكون المقصود بالمصطلح نحو الكلام، وهذا من فعل المتكلم، وإذا أطلق على الجهود والدراسات اللغوية التي نظرت في هذا النظام يكون من فعل دارس هذا النظام وهذه الدلالة هي الأكثر شيوعًا كما ذكرنا. ويلحظ المتأمل أن موضوع علم النحو أو النحو هو النظام التركيبي للغة وأن مفهومه هو معرفة العناصر التي يتشكل منها هذا النظام للتقعيد لها أو لتحديدها وبيان معانيها ومعرفة خصائصها وكيفية انتظامها وعلاقة بعضها ببعض، وما يتصل بها من قضايا أخرى، وإذا أطلق المصطلح على المؤلفات التي تشمل النحو والصرف وبعض القضايا الصوتية فذلك من باب التوسع بسبب العلاقة الوثيقة بين مستويات الدرس اللغوي النحوي والصرفي والصوتي ولاسيما في الجانب التعليمي.

أما في العصر الحديث فقد تطور النظر النحوي وتشعبت الاتجاهات والدراسات، والملاحظ أنها تتفق جميعها في أن موضوع النحو هو النظام التركيبي، ولكنها لا تتفق في تحديد طبيعة هذا النظام وكيفية دراسته. ويبدو للمتأمل أن الجهود المعاصرة يمكن تقسيمها إلى فئتين الأولى ذات طابع تراثي، والثانية انتقدت جهود التراث متأثرة بالدراسات الغربية تأثرًا كبيرًا، ومؤلفات القسم الأول ليس من جديد فيها، غايتها أن تكون امتدادًا لجهود القدماء وهي ذات طابع تعليمي في أغلبها، وهي بمجملها لا تقف عند تعريف المصطلح، لأنها تنطلق في تناول الظواهر النحوية من مفهوم تراثي مألوف، وإذا ما وقف بعضها عند مصطلح النحو، فإنه يستلهم تعريفه من جهود السابقين الأوائل في تراثنا، من ذلك ما ذكره مصطفى جمال الدين، إذ يعرّف النحو بقوله: "النظام اللغوي المكوّن من الصيغ والأدوات والعلامات والتركيبات الخاصة والذي يربط بين مفردات المعجم بحيث تؤدّي كلٌّ منها وظيفتها التركيبية ضمن الهيئة العامة للتآليف الدالة هي أيضًا على المعنى المؤلّف ــ هو الذي نسميه نحوًا"[**].

بيد أن أصحاب هذا التوجه الذي يرى نفسه امتدادًا للتراث لم يكونوا على خط منهجي محدد في ميدان الدرس، فمنهم من قرأ كتب التراث لتلمس جهود نحوي أو لتتبع ظاهرة معينة في الدرس النحوي أو لتقديم دراسة تطبيقية بمفهوم نظري تراثي، أو لتبسيط الدرس النحوي التعليمي، ومنهم من حاول أن يجمع بين التراث وبعض الأفكار المعاصرة التي نظر إليها نظرة أصيلة محافظًا على جذوره، وربما وصل الأمر ببعضهم إلى شيء من التكلف لتلمس المشابهة بين القديم والحديث، من هؤلاء الباحث الفاضل محمد حماسة عبد اللطيف، حين قدم تعريفًا للنحو فيه شيء من المعاصرة والإضافة أو التوسع للمفهوم القديم، فالنحو عنده إنما هو "وصف سليقة المتكلم اللغوية وتلمّس المقاييس العقلية التي تجعله قادرًا على استخدام لغته من خلال

** البحث النحوي عند الأصوليين، ص١٢.

وصف الأمثلة التي ينتجها هذا المتكلم، ويحكمها قانون واحد يوجهها نحو الصواب اللغوي، ولا ينحرف بها إلى خطأ نحوي خارج عن النظام الذي تتبعه اللغة ويعرفه المتكلم بهذه اللغة"[٥٦]. وبهذا التعريف يعطي النحو مفهومًا واسعًا طموحًا يتجاوز أمر اللغة إلى العقل، وهو مفهوم يعود إلى صاحب النظرية التوليدية التحويلية تشومسكي (Tchomsky) الذي أثر كثيرًا في الدراسات اللغوية المعاصرة[٥٧]، ثم يضيف محمد حماسة مستهل خطبة ابن مالك في "شرح الكافية الشافية":

وبعدُ فالنحوُ صلاح الألسنة والنفسُ إن تعدم سناه في سنة

به انكشاف حجب المعاني وجلوة المفهوم ذا إذعان

معلقًا بقوله: "فيحدد بذلك مفهوم النحو وغايته، فالنحو عنده "صلاح الألسنة"، وهذا هو مستوى الصحة النحوية، و"به انكشاف حجب المعاني وجلوة المفهوم"، وهذه هي الغاية الحقيقية للنحو، وإذا كان التحويليون يجعلون من النحو المستوى العميق[٥٨] للجملة الذي يمد الجملة بمعناها الأساسي، ويحدد هذا المعنى، فإن هذا – وإن اختلفت طريقة العرض– هو الغاية من النحو كما قدمها ابن مالك من مئات السنين..."[٥٩]. وبذلك نتأكد أنه يحدد النحو بمفهوم النظرية التوليدية التحويلية، وهو فهم طموح واسع كما ذكرنا، غير أن فهمه لحدود النحو بهذه الصورة، وهو الذي حاول تعزيزه بقول ابن مالك لا ينطبق على مفهوم النحو عند القدامى، ولا يتفق مع تعريفاتهم، لاختلاف في الغاية والمادة المدروسة وطريقة استنباط القواعد وغيرها، فإنّ المقارنة بين نظريتين يفصل بينهما مئات السنين تفرض على الباحث المزيد من الحذر والحيطة في إطلاق الأحكام إزاء المسائل التي تبدو متشابهة، وتفرض عليه أيضا أن يراعي الظّروف المحيطة التي ولدت في كلٍّ منها هاتان النّظريتان، فالمناخ الذي تنشأ فيه دراسة ما لاشكّ أنه سيحدّد هدفها ومنهجها وطريقتها في تناول الموضوع المدروس[٦٠]. ثم إن النحو بالمفهوم التوليدي التحويلي مفهوم طموح

---

[٥٦] عبد اللطيف، محمد حماسة: النحو والدلالة "مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي"، ص٢٤.

[٥٧] انظر في تعريف النحو عند تشومسكي، الموسى، نهاد: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ص٥٣.

[٥٨] يقصد تشومسكي بالبنية العميقة الأساس الدلالي الذّهني المجرّد الذّي يحدد المحتوى المعنوي للجملة، وهو في ذهن المتكلّم المستمع حين تُرسل الجملة أو تُستقبل. أمّا المقصود بالبنية السّطحية فهو الصّورة الظّاهرة التي تتمثّل بها الجملة. ويعتمد تشومسكي لتوضيح مايريد المثل المعروف في قواعد (بور رويال PORT ROYAL) وهو : خلق اللهُ الذي لايرى العالمَ المرئي. فهذه الجملة ذات البنية السّطحيّة الواضحة إنّما تعود في رأي تشومسكي إلى معان ذهنيّة مجرّدة يمكن تمثيلها بثلاث جمـل نواة: (١) الله لايرى (٢) اللهُ خلقَ العالم (٣) العالم مرئي. وهذه المتتيّنات المجرّدة حوّلت إلى البنية السطحيّة على شكل الجملة السّالفة الذكر، وذلك بإجراء عمليّات تحويليّة معيّنة (١) ، ثم رأى تشومسكي أنّ التّفسير الدّلالي للجملة إنّما تحدّده بنيتها العميقة، ولكنّه أكّد التّمييز بين البنية العميقة والتفسير الدّلالي للجملة، فرأى أنّ البنية العميقة ذات أصل نحوي، ويُشتق منها التفسير الدّلالي عن طريق مجموعة من القواعد الخاصّة بالتّركيب الدّلالي، وعندئذ تجري على البنية العميقة تحويلات معيّنة، وبعد هذه المرحلة التي يقع على عاتقها التفسير الدّلالي مع بعض التّحويلات للبنية العميقة تأتي البنية السطحية التي تظهر بها الجملة(٢) ، والتي تشارك أحيانًا في التّفسير الدلالي. انظر: بقر، مرتضى جواد : مفهوم البنية العميقة بين جوسكي والدرس النحوي العربي، مجلة اللسان العربي بالرباط ، ع (٣٤) ، ص١٤، ونظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ص٨٠، وسيرل، جون: تشومسكي والثّورة اللغوية ، مجلّة الفكر العربي ع (٨ـ٩)، ص١٤٠ـ١٤١، والفهري، عبد القادر الفاسي: اللسانيات واللغة العربية، ص٧٠.

[٥٩] النحو والدلالة، ص٢٧.

[٦٠] الجاسم، محمود حسن: التأويل النحوي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص٣٦٢-٣٦٤.

جدًا يتعدى حدود اللغة الواحدة في بحثه عن البنى النحوية والكليات اللغوية المشتركة الموجودة في أذهان البشر جميعًا، فلا يهتم بنحو لغة ما بقدر ما يهتم بالقدرة النحوية الإبداعية عند البشر جميعًا، فضلاً عن أنها نظرية في تطور مستمر[٦١].

أما أصحاب الاتجاه الثاني الذين تميزوا بالنظرة النقدية للجهود السابقة واجتهدوا، فيلحظ المتتبع لجهودهم أن منهم من اكتفى بفهم معين للنحو من دون أن يعرفه مكتفيًا بتصور عام مفاده أن موضوع النحو هو الجانب التركيبي، ومن أبرز هؤلاء تمام حسان حين انتقد علم النحو وقواعده لدى أسلافنا، إذ يستخلص من حديثه أن القواعد النحوية التي استنبطها القدامى لم تكن صحيحة في تناول النظام التركيبي، فوقعوا في أخطاء منهجية خطيرة، وعليه يرفض الدراسة النحوية عند أسلافنا ويقدم نظرية جديدة في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها، ولا يسمح سياق البحث بمناقشة ما قدمه مناقشة مفصلة، غير أن ما يظهر عنده هو التأثر المنهجي المطلق بالدراسات الحديثة وقد استطاع أن يقدم أفكارًا لا يمكن تجاوزها، مثل دراسته للقرائن وتقسيمه لمستويات الدرس اللغوي ومكوناتها، على الرغم من أن نظريته التي قدمها لا تصلح لأن تكون بديلاً، لأسباب كثيرة من أهمها أنها لا تصلح لوصف النظام التركيبي وصفًا عميقًا دقيقًا، يوضح خفايا المعاني النحوية واحتمالاتها وقيمتها التعبيرية كما في النحو التقليدي، ومنها ما يتعلق باعتبارات حضارية تمسّ هوية الأمة ومكوناتها من خلال علاقة علم النحو بالجوانب الثقافية التي تشكل الهوية الثقافية في الحضارة العربية، وهي التي تؤثر في الحاضر والمستقبل، والتي نعيش فيها ونحرص على الحفاظ عليها.

ومن هؤلاء الذين انتقدوا مفهوم النحو ودراسته عند القدماء الباحث عبد الله الخثران، فقد رأى أن النحو بمفهومه القديم يقتصر على النظر في الإعراب ومشكلاته وعوامله وغير ذلك، وهو عكس المفهوم الحديث الذي وسّع دائرة النحو، فجعله يشمل أمورًا أخرى، كالموقع والعلاقة بين الوحدات المكونة ونحوه من مسائل لها علاقة بنظم الكلام[٦٢]. وقد ذكرنا فيما سبق ما ينفي هذا الحكم الذي ذكره الباحث، وهو أن القدامى لم يقتصروا على ما ذكره الباحث ولم يضيقوا مفهوم النحو إلا في مرحلة متأخرة من مراحل الدرس النحوي.

وهناك دراسات معاصرة كثيرة رفضت علم النحو بمفهومه القديم، وهي بذلك ترفض حدوده وليس المنهج العلمي في الدرس فقط، وهي دراسات كثيرة شائعة في عصرنا الحديث، ولا جدوى مهمة من الوقوف عندها فنكتفي بالأهم الذي عرضنا له.

ولا يخفى أن اعتقاد أصحاب التوجه الذي رفض الدرس القديم بحدوده ومنهجه يفتقر إلى العلمية، فالدرس النحوي عند أسلافنا لم يكن بهذا الضيق الذي تصوروه، فقد راعى القدامى الجانب التركيبي وأسراره وما يتعلق به من أمور، فأخذوا مثلاً قضايا السياق بالحسبان، كقولهم: يحذف الفعل أو المبتدأ،

---

[٦١] المصدر نفسه.

[٦٢] الخثران، عبد الله: الاتجاهات التجديدية في الدرس النحوي، ص٥.

لدلالة المقام عليه[٦٣]، ويحذف الفعل أو المفعول به أو الموصوف أو غيره، لدلالة الكلام عليه[٦٤]، ويحذف من الكلام استخفافًا، لكثرة الاستخدام[٦٥].

ونظروا في معطيات السياق البعيدة التي تسهم في تفسير عناصر النظام التركيبي، والتي تجعل عنصرًا نحويًا في جملة ما يحتمل أكثر من معنىً، فبيّنوا الأوجه المحتملة بحسب ما تقتضيه تلك المعطيات[٦٦]، وتبين لهم في تحليلهم أن هناك بعض العبارات التي تحتمل غير معنىً، بسبب الغموض في بنيتها التركيبية، كما يظهر عند ابن هشام(ت٧٦١هـ) في المغني[٦٧]، وهي ظاهرة شائعة في مختلف اللغات الإنسانية[٦٨]، فوقفوا عند الأساليب التي تعكسها، وبينوا الأوجه التي تحتملها[٦٩]، كما ميّزوا في تحليلهم المستويات الأسلوبية بعضها من بعض، ففرّقوا بين الشعر وغيره، واستنبطوا قواعد خاصّة بالشعر لا تجوز في الكلام العادي[٧٠]، وحين جرّدوا قواعد فرعية، خرجت على الأصل، تلمّسوا أهمية النحو الجمالية[٧١]، فلم يكتفوا بالنظر إلى نظام اللغة التركيبي، بل تجاوزوه ونظروا في البعدين العقلي والنفسي عند صاحب الكلام، حتى أدركوا أن سرّ الإبداع يعود إلى توخّي معاني النحو[٧٢]، ولاشك أنهم لم يقتصروا على المبنى، حتى أدركوا قيمة النحو الجمالية، وإنما تسنّى لهم ذلك بعد أن امتد بصرهم، ليبيّن العلاقة بين المعنى المعجمي للمفردات ومعنى المبنى أو المعنى الوظيفي[٧٣]، وذلك بفضل إدراكهم قانون التوارد[٧٤]، فدرسوا الاتساع في اللغة بأنواعه المختلفة، كالإسناد المجازي[٧٥]، والتضمين[٧٦]، وإسناد اسم المعنى إلى اسم ذات[٧٧]، أو وصف اسم الذات باسم معنى[٧٨]،أو إسناده إلى اسم ذات ليس من جنسه بالتشبيه[٧٩]، أو غيره

---

[٦٣] كتاب سيبويه١/١٢، ٢٦٦، ٣٤٥.

[٦٤] المصدر نفسه١/٨٥، ١٣٢، ٢٥٧، ٢٨١-٢٨٢، ٢/٣٤٦ .

[٦٥] المصدر نفسه١/٢٨٠، ٣٢٧ .

[٦٦] ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص٥٥.

[٦٧] السيد، عبد الحميد مصطفى: التحليل النحوي عند ابن هشام الأنصاري، ص٥٩.

[٦٨] عبده، داود: التغيير وظاهر اللفظ، مجلة الفكر العربي ع ٨-٩، ص٧ .

[٦٩] انظر مثلاً: كتاب سيبويه١/١٥٦-١٥٧، والتحليل النحوي عند ابن هشام الأنصاري، ص٥٩.

[٧٠] كتاب سيبويه ١/٢٦-٣٢ .

[٧١] المصدر نفسه ١/٥٦، وللمزيد انظر: سلمان، عدنان محمد: الاستقراء في النحو، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج(٣) مج (٣٥)، ص١٧٦-١٧٧ .

[٧٢] الجرجاني،عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص٦٢، ٦٦، ٦٧.

[٧٣] المقصود بمعنى المبنى أو المعنى الوظيفي هو معنى الأجزاء التحليلية، الصوتية والصرفية والنحوية للعبارة، انظر: الأصول،ص ٣٢٥، والمراد في هذا السياق هو معنى الأجزاء النحوية، التي جردها النحاة في قواعد، من خلال بيان معانيها، وعلاقة بعضها ببعض.

[٧٤] المقصود بالتوارد هو المناسبة المعجمية بين الألفاظ التي تتوالى في التركيب، انظر: حسان، تمام: ضوابط التوارد، مجلة مجمع اللغة العربية بمصر، (ج) (٥٨)، ص٣٠٧-٣٠٨.

[٧٥] كتاب سيبويه١/٢١٣، وللمزيد انظر: الفرّاء: معاني القرآن٣/٢٣٤.

[٧٦] كتاب سيبويه١/١٢٤-١٢٦، وللمزيد انظر: الفراء: معاني القرآن٢/١٦٣، والمبرد، محمد بن يزيد: المقتضب٣/١٨٩.

[٧٧] مجاز القرآن٢/٢٥٩.

[٧٨] كتاب سيبويه٢/٢٧، ٣١، ١١٩ .

[٧٩] المصدر نفسه٢/٢٩ .

من أنماط الاتساع الأخرى[٨٠]، وبعد أن حلّل النحاة النظام التركيبي، واستخرجوا قواعده، بدؤوا يقيسون عليها، ويؤلفون مسائل للتمرين، ثم يحللون هذه المسائل لغاية تعليمية، فتطوّر بهم الأمر، حتى ولّدوا مسائل مقيسة، من المحال أن يتحدث بأمثالها ابن اللغة[٨١]، غير أنها، على الرغم من استحالة وجودها الواقعي بيّنت الطاقة التجريدية الإبداعية للنحو المتمثلة بالصلة المعروفة بين النحو والرياضيات والمنطق[٨٢]، وهي قضايا أشرنا إليها في مواضع أخرى يمكن الرجوع إليها[٨٣].

ويمكن أن نستخلص في ضوء ما سبق أن توجه الدرس اللغوي قديمًا وحديثًا يؤكد أن النحو هو ما يتعلق بالجانب التركيبي فإذا أطلق على النظام التركيبي للكلام يكون المقصود بالمصطلح نحو الكلام، وهذا من فعل صاحبه المتكلم، وإذا أطلق على الجهود والدراسات اللغوية التي نظرت في هذا النظام فإنه من فعل دارس هذا النظام. ويلحظ المتأمل أن موضوع علم النحو أو النحو قديمًا وحديثًا هو النظام التركيبي للغة وأن مفهومه هو معرفة العناصر التي يتشكل منها هذا النظام لتحديدها وبيان معانيها ومعرفة خصائصها وكيفية انتظامها وعلاقة بعضها ببعض، وما يتصل بها من قضايا أخرى.

ولابد من الإشارة إلى أن الدراسات العربية الحديثة التي تعد انعكاسًا للدراسات اللسانية الغربية تُقدم مفهوم النحو على أنه دراسة النظام التركيبي بغض النظر عن الكيفية والمنهج المتبع، ويفصّل بعضها فيرى أن علم النحو في اللغة، أية لغة، ينقسم إلى قسمين نحو الجملة ونحو النص، ويرى أن نحو الجملة هو ما تقتصر عليه قضايا الجملة، وبذلك يطلق على الدراسات اللغوية التي تتعلق بالجملة، أما نحو النص فهو مجموعة المعطيات أو المعايير النصية التي تجعل من نصّ ما نصًا، وبين كلٍّ منهما والآخر نقاط تلاق ونقاط اختلاف[٨٤].

ولا شك أننا في دراستنا نطلق مفهوم النحو على قضايا الجانب التركيبي سواء أكانت متعلقة بما تتشكل منه الجملة أم كانت قضايا نصية تؤثر في الجملة أو تتصل بها، ذلك أن النحاة القدامى أطلقوا المصطلح على قضايا النظام التركيبي أيًا كانت، فعلى الرغم من أن همهم كان ينصب على عناصر الجملة نلحظ أنهم أخذوا القضايا المؤثرة فيها بالحسبان، ومن ثم درسوا ما يشكل نسيجها ويؤثر في عناصرها ومعناها النحوي وفي موقعها وعلاقتها بالدلالة النصية العامة، وبما قبلها وما بعدها من قضايا المقام أو قضايا نصية سابقة أو لاحقة، ومن ثم راعوا هذه الأمور وأدخلوها في صميم القواعد كما عرضنا فيما سبق، وهذا المفهوم هو ما نقصده بالنحو.

---

[٨٠] المصدر نفسه١/٤٨-٤٩، ٢/٤٧-٤٨، ٣١٩-٣٢٥، ٣٥٩.

[٨١] انظر مثلاً: المقتضب٢/٥٩، ٦٤، ٢٩٧-٣٠١.

[٨٢] زكريا، ميشال: الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية(النظرية الألسنية)، ص٧٤-٧٨، واللسانيات واللغة العربية، ص٢٥-٢٦.

[٨٣] الجاسم ، محمود حسن : التحليل النحوي تعريفه وطبيعته، مجلة كلية الدراسات الإسلامية واللغوية بدبي، ع (٢٠)، ص٣٣٣-٣٤٦، والجاسم، محمود حسن: القاعدة النحوية تحليل ونقد، ص١٨٧-١٩٠.

[٨٤] لمناقشة هذه القضايا والفصل بين نحو الجملة ونحو النص انظر مثلاً: عفيفي، أحمد: نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص٦٣-٩١.

المصادر والمراجع:

-**ابن جنّي**، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط٢.

-**ابن جنّي**، أبو الفتح عثمان: المنصف في كتاب شرح التصريف للمازني. تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، القاهرة ١٩٥٤م.

-**ابن خلكان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس، دار صادر ببيروت، ط١٩٩٤،١م.

-**ابن دريد**، محمد بن الحسن: جمهرة اللغة، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ١٣٤٥هـ.

-**ابن السرّاج** ، أبو بكر محمد بن سهل : الأصول في النحو، تحقيق : عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط(٤)،١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

-**ابن سلّام الجمحي**، محمد: طبقات فحول الشعراء، شرحه محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٥٢م.

-**ابن عصفور**، أبو الحسن علي بن مؤمن: المقرّب. تحقيق أحمد عبد الستّار الجواري وعبد الله الجبوري، د.ن، ط(١)١٣٩١هـ/١٩٧١م.

-**ابن فارس**، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

-**ابن كمال باشا**، شمس الدين أحمد بن سليمان: أسرار النحو. تحقيق أحمد حسن حامد، دار الفكر بعمّان، د.ت.

-**ابن منظور**، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، دار صادر ببيروت ط٣، ٢٠٠٤م.

-**ابن النديم**، محمد بن إسحاق: الفهرست، دار المعرفة ببيروت، لبنان، د.ت.

-**ابن هشام الأنصاري**، جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، منشورات جامعة حلب، د.ت.

-**أبو عبيدة**، معمر بن المثنّى التّيمي: مجاز القرآن . عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين مكتبة الخانجي ، دار الفكر ، ط (٢) ، ١٩٧٠م.

-**باقر**، مرتضى جواد : مفهوم البنية العميقة بين جوسكي والدرس النحوي العربي . مجلة اللسان العربي بالرباط ، ع (٣٤) ، ١٩٩٠م.

-**بكر**، محمد صلاح الدين: نظرة في قرينة الإعراب في الدراسات النحوية. حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت، الحولية الخامسة، الرسالة العشرون، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

-**التهانوي**، محمد علي الفاروقي: كشّاف اصطلاحات الفنون. تحقيق لطفي عبد البديع، وترجم النصوص الفارسية عبد المنعم محمد حسنين، وراجعه أمين الخولي، دار الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

-**التونسي**، زين العابدين: المعجم في النحو والصرف. مطبعة الترقي بدمشق،١٣٧١هـ-١٩٥٢م.

-**الجاسم**، محمود حسن: التأويل النحوي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة حلب، كلية الآداب ١٩٩٥م.

-**الجاسم** ، محمود حسن : التحليل النحوي تعريفه وطبيعته ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية واللغوية بدبي، ع (٢٠) ، ٢٠٠١م.

-**الجاسم**، محمود حسن: تعدد الأوجه في التحليل النحوي، دار النمير بدمشق، ط١، ٢٠٠٧م.

-**الجاسم**، محمود حسن: القاعدة النحوية تحليل ونقد، دار الفكر بدمشق، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

-**الجرجاني**، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار قتيبة بدمشق، ط(١)١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

-**الجرجاني** ، علي بن محمد: التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبيـاري، دار الكتاب العربي ببيروت، ط (١)، ١٤٠٥هـ.

-**جمال الدين**، مصطفى: البحث النحوي عند الأصوليين. دار الهجرة بقم، إيران، ط٢، ١٤٠٥هـ.

-**جمعة**، أحمد عبد العظيم: المصطلح النحوي. دراسة نقدية تحليلية، دار الثقافة بالفجالة، مصر،١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

-**حسان**، تمام: ضوابط التوارد، مجلة مجمع اللغة العربية بمصر، (ج) (٥٨) ١٩٨٦م.

-**حسّان**، تمّام: اللغة العربية معناها ومبناها. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

-**الحلواني**، محمد خير: المفصل في تاريخ النحو، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

-**الدجني**، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي. وكالة المطبوعات بالكويت، ط١، ١٩٧٤م.

-**الزُبيدي الأندلسي**، أبو بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف بمصر ط٢. د.ت.

-**الزجاجي**، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق: الإيضاح في علل النحو. القاهرة، ١٣٧٨هـ.

-**زكريا**، ميشال: الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية(النظرية الألسنية)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

-**الزمخشري**، جار الله، محمود بن عمر: أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٣م.

-**السكّاكي**، يوسف بن أبي بكر: مفتاح العلوم، المطبعة الأدبية بمصر، ١٣١٧هـ.

-**سلمان**، عدنان محمد: الاستقراء في النحو، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج(٣) مج (٣٥) ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

-**سيبويه**، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : الكتاب . تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، القاهرة ١٩٦٦م.

-**السيرافي**، أبو سعيد، الحسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين. اعتنى بنشره وتهذيبه فريتس كرنكو، المطبعة الكاثوليكية ببيروت وباريس، ١٩٣٦م.

-**سيرل**، جون: تشومسكي والثّورة اللغويّة ، مجلّة الفكر العربي ع (٨ـ٩) من حاشية تعريف حماسة ما جستير

-**السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن: الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم، جروس برس، ط(١) ١٩٨٨م.

-**السيد**، عبد الحميد مصطفى: التحليل النحوي عند ابن هشام الأنصاري، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات، جامعة عمّان الأهلية بالأردن، مج(٢)، ع(١)، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

-**الشوكاني**، السيد ركن الدين جمال الإسلام: كتاب القواعد والفوائد، تحقيق ودراسة عبد الله الخثران، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية،١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

-**الصبّان**، محمد بن علي: حاشية الصبّان على الأشموني. دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت.

-**عبد اللطيف**، محمد حماسة: النحو والدلالة "مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي". القاهرة (د ن)، ط (١) ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

-عبده، داود: التقدير وظاهر اللفظ، مجلة الفكر العربي ع ٨-٩، معهد الإنماء العربي بيروت ١٩٧٨-١٩٧٩م.

-**عفيفي** ، أحمد : نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة ، ٢٠٠١م.

-**الفارسي**، أبو علي الحسن بن أحمد: التكملة، تحقيق حسن شاذلي فرهود، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض، ط(١) ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

-**الفاكهي**، عبد الله بن أحمد: شرح كتاب الحدود في النحو، تحقيق المتولي رمضان أحمد الدميري، دار التضامن للطباعة بالقاهرة،١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

-**الفرّاء**، أبو زكريّا يحيى بن زياد: معاني القرآن. حقّق الجزء الأول والثاني أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار. دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٥م، وحقق الجزء الثالث عبد الفتاح شلبي وراجعه علي النجدي ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.

-**الفهري**، عبد القادر الفاسي: اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال بالدار البيضاء، ط(١) ١٩٨٥م، أو منشورات عويدات ببيروت وباريس، ط(١) ١٩٨٦م.

-**قباوة**، فخر الدين: التحليل النحوي أصوله وأدلته، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان-مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠٠٢م.

-**قباوة**، فخر الدين: جذور التحليل النحوي في المدرسة القرآنية القدمى. دار الغوثاني بدمشق، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

-**القوزي**، عوض حمد: المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثالث الهجري، عمادة شؤون المكتبات بجامعة الرياض، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

-**الكفوي**، أبو البقاء أيوب بن موسى: الكليات، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق، ط٢، ١٩٨١-١٩٨٢م.

-**الليدي**، محمد سمير نجيب: معجم المصطلحات النحوية والصرفية. مؤسسة الرسالة ببيروت، دار الفرقان، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

-**المبرّد**، أبو العبّاس محمّد بن يزيد: المقتضب، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب، بيروت د.ت.

-**الموسى**، نهاد: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير، ط٢، ١٩٨٧م.

-**ياقوت**، أحمد سليمان: ظاهرة الإعراب في النّحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٤م.

Author Dr. Mahmoud Al-Jasem

Title: The Concept of Syntax in Arabic between the Old and the New

Summary

concept of syntax in Arabic culture in This article deals with the
stops at the linguistic meaning of both old and contemporary times. It
uses which spread in the the word syntax and clarifies this word's
uses include Arab world and were listed in dictionaries. These
or intention, modification, adoption, similarity, closeness, side
terminological direction, and part. Then, the article moves to the
meaning and meaning of syntax to discuss it in light of the linguistic
to to study how syntax scholars dealt with the term. In addition
and this, the article discusses these scholars' definitions of syntax
by its field, showing in the meanwhile how this was influenced
article positive and the negative cultural conditions. After this the
most moves to study the term in modern times by considering the
influence prominent modern Arabic studies and trying to examine their
upon by modern linguistics and their difference from what was agreed
of in old studies. The article concludes with its own definition
.syntax which is formed in light of what has been mentioned

:Key Terms

syntax, linguistic meaning, terminological meaning